شعر أبي مدين شعيب الأندلسي التلمساني
قراءة نقدية توثيقية

د.بومدين كروم
جامعة تلمسان

مقدمة :

لقد رأيت ، في مقدمة هذه الكلمة طرح بعض الأسئلة التي ستكون الإجابة عنها إضاءة لجوانب الموضوع المحدد أعلاه . فمن المسلم به ، أن أبا مدين عالم جليل ، ومتصوف كبير ، ولكن ما نوع تصوفه ؟

ومن المشهور أنه أديب شاعر ، ولكن ما طبيعة شعره ؟ وما مستواه ؟ وما هي مجالاته وأغراضه ؟

وهل خلف ديوان شعر ؟ وهل الموجود من شعره ، شعره أم يشاركه فيه غيره ؟

إن المتتبع لآثار الشيخ أبي مدين ، والأخبار الدائر ة حوله في كتب معاصريه ، ومن جاء بعده يلحظ إجماعها على :

أن أبا مدين فقيه مالكي. وأنه أديب نحرير، ثقف علوم العربية ، وملك ناصية البيان ، وقد تجلى ذلك من خلال ما نسب إليه من شعر وما قاله من حكم دلت على براعته في صناعة الكتابة .

وأنه عالم زاهد ، ومتصوف عامل ، طارت شهرته في الآفاق ، تنقل أخباره وكراماته وصلاحه ، وطريقته التي تثمر التوحيد الخالص لله تعالى ، تلك الطريقة التي سار فيها من قبله علماء أعلام ، من أمثال الجنيد ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والقشيري ، وأبي حامد الغزالي ،

وابن حرزهم ، وأبي يعزى ، وغيرهم ، وكانت كتبهم وأقوالهم مرجعه ومستنده في طريقته [1] بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فطريقته الصوفية طريقة عملية ، تعلما وتعليما تتسم بالاعتدال في تربية النفس وتزكيتها ، والارتقاء بها إلى مقام المشاهدة والتوحيد الخالص لله عز وجل . وقد قال في حكمه :« لا طريق أوصل إلى الحق من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحكامه » [2] ، فتصوفه يثمر وحدة الشهود لا وحدة الوجود التي حاول تلميذه ابن عربي نسبتها إليه تعزيزا لمذهبه ونزعته الصوفية ، فقد روى أنه رأى أبا مدين في رؤيا وقد دار به كبار الصوفية يسألونه عن مسائل الصوفية فيجيبهم أبو مدين ، ومن كلامه في إجابته قوله في تحديد صفة العارف : «.... فهو للعارف ضياء ونور ، وقد أشغله به عن الجنة والقصور ، آنسه به فهو جليسه ، وأفناه عنه فتلاشى كثيفه فامتزج المعنى بالمعنى فكان هو، ذهبت الرسوم ، وفنيت العلوم ، ولم يبق إذ ذاك إلا الحي القيوم ، وهو معنى المعاني.....» [3]

وهذا الكلام لا نجد له شبيها في كلام أبي مدين في اليقظة ، فهو أقرب إلى لسان حال أصحاب المدرسة الصوفية الفلسفية ، من أمثال ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما الششتري . فكلام أبي مدين تعبير جميل وواضح عن تجربة روحية عملية ورثها عن الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته العملية ، وعمن تأسى بهم من العلماء العاملين ، كما ورثها عنه علماء أعلام أمثال المقري الجد ،و محمد بن يوسف السنوسي ، وتلميذه أحمد بن الحاج الي بدري الذي كان إعجابه بأبي مدين شديدا ، حتى انه تأثر طريقته ، وخمس قصيدته الرائية [4] وغيرهم كثير. كما أجمع مترجموه على صحة إيمانه ، وسلامة عقيدته ، والإشادة بآثاره العلمية والتربوية ، فهو عالم جمع بين الشريعة و الحقيقة في توازن محكم ، وانسجام هادف لا غلو فيه .

وهم ، وإن أ شار بعضهم إلى أن له أشعارا [5] نظمها للتعبير عن تجربته الصوفية ؛ فقد تفاوتوا في كمها ،

وفي نسبتها ، و إيراد نوع منها دون نوع ، ذلك أن أبا مدين لم يخلف ديوانا شعريا يعرف به ، ويحصر أ شعاره على نحو ما هو متبع ومعهود في دواوين الشعر المعروفة .

ولقد فتح غياب الديوان ثغرة نفذ منها نوعان من الناس :

– صنف نظم أشعارا طلب لها الشهرة من خلال أبي مدين شعيب الذائع الصيت ، فنسبها إليه .

- وصنف مريد ومحب ، قد أعجب بشخصية أبي مدين الفذة ، فجمع أقواله وأشعاره ، ثم ضم إليها أشعارا لشعراء آخرين ، قيلت في المعاني ذاتها ، فجاء النساخ ، فجمعوا الأشعار بعضها إلى بعض ونسبوها برمتها إلى الشيخ أبي مدين ، وتوارثها الناس على أنها له ، مع أن فيها ما هو له وما هو لغيره من شعراء التصوف وغيرهم من شعراء الحب العذري .

إن ما يمكن ملاحظته كذلك ، هو أن في الأشعار المجموعة المنسوبة إليه نصوصا فصيحة ، ثبتت مشاركته فيها ، وأخرى من نوع الموشح ، والمزنم ، والزجل وهي فنون لم يؤثر عن أبي مدين أنه قال فيها شعرا ، فهي فنون لم تدخل عالم التصوف إلا في عهد تلاميذه وغيرهم ممن جاءوا بعده من أمثال عبد الحق بن سبعين ، ومحي الدين بن عربي ، وأبي الحسن الششتري ، وغيرهم من المتأخرين.

ومن هنا كان لابد من جلو مرآة آثاره الشعرية حتى تكون دالة عليه ، بما عرف عنه من توازن تصور، وسلامة لغة ، وقوة أسلوب ، وقد استوقفتني في هذه القراءة مقطوعتان : بائية ونونية ، وقصيدة حائية ,

ومجموعة من المزنمات والازجال

فأما المقطوعة البائية , فلا نلمس فيها منزع أبي مدين شعيب الصوفي ، بل إن فيها من التشبيه والتجسيم ما ينافي التصور الصحيح ، والعقيدة الصافية ؛ فهي إلى طريقة مجنون ليلى أقرب ، فضلا عن أن فيها بيتين يتقاطعان مع شعره ، وهما البيتان الرابع والخامس ونصهما :

كعصفورة في كف طفل يضمها تذوق سياق الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يحن لما بها ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب[6]

وأما المقطوعة النونية ، فإن فيها كذلك بيتا قريبا من بيت إحدى مقطوعات مجنون ليلى، ونصه عند أبي مدين:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ما لذة العيش إلا للمجانين [7]

ونصه في ديوان المجنون :

قالت جننت على رأسي فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين [7]

وأما القصيدة الحائية ، فقد وردت فيها خمسة أبيات ، هي ذاتها في قصيدة السهروردي المقتول
الشهيرة ، مع تغيير طفيف في بعض كلماتها ، فالأبيات الخمسة الأولى من قصيدة أبي مدين ،هي الأبيات الثاني عشر ،والثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والثامن عشر ، مع اختلاف في ترتيبها ، ونصها في ديوان أبي مدين قوله :

يا صاح ليس على المحب جناح إن لاح من أفق الوصال صباح

لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانه فضح الغرام فباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح رباح

لم يطربوا إلا بذكر حبيبهم ولهم بطول زمانهم أفـراح

فدعاهم داعي المحبة دعوة فغدوا بها مستبشرين وراحـوا (8)

ونصها في حائية السّهروردي ، قوله :

يا صاح ليس على الحب ملامة إن لاح في أفق الوصال صباح

لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم فنما الغرام فباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح ربـاح

ودعاهم داعي الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا

لا يطربون لغير ذكر حبيبهم أبدا فكل زمانهم أفـراح

فالاختلاف بين النصين هو في ترتيب الأبيات ، وفي بعض المترادفات ، وهو مما لا يؤثر في ثبوت التناصّ التام بين النصين ، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من تداخل بين نصي الشاعرين .

. وأما الموشحات المزنّمات ، والأزجال الموجودة في ديوانه ، فالراجح أنها ليست له، وإنما نسبها إليه النساخ من المريدين من بعده ، وذلك بالنظر إلى :

1 – تأخر التّعبير بالموشحات والأزجال عن المعاني الصوفية في عصره ، فقد اتفق الباحثون على أن محي الدين بن عربي هو أول من طوّع الموشّح للتعبير عن المعاني الصّوفية ، وأن التعبير بالزّجل عن المعاني ذاتها لم يكن قبل عبد الحق

بن سبعين ، وتلميذه أبي الحسن الشّشتري الذي برّز فيها ونال بوساطتها شهرة واسعة.

2 – إن المعنى الذي حامت حوله نصوص الزجل الواردة في ديوان أبي مدين هو معنى الوحدة المطلقة ، وهو معنى فلسفي صوفي متأخر عن عصر أبي مدين ، قد اشتهر بالا فصا ح عنه شعراء القرن السّابع الهجري من أمثال ابن سبعين ، وعفيف الدين التلمساني ، والششتري الذي جعله معنى المعاني وحام حوله في جلّ شعره .

3 – إن ما اتسمت به تلك النصوص من فنيات التقطيع ، والتكرار فضلا عن مركزية فكرة الوحدة المطلقة ، هي سمات اشتهر بها الششتري في طريقته الشعرية التي أضحى بها قدوة احتذاها الشعراء في عصره وبعده ، وعليه فإننا نرجح نسبة النصوص المشتركة بين الشاعرين إلى الششتري ، لاتساقها مع مذهبه الصوفي ، وطريقته الشعرية ، وأن وجودها في ديوان أبي مدين لا يعدو أن يكون من صنيع نسّاخ مريدين أعجبتهم نصوص في مجال بعينه ، فضمّوا بعضها إلى بعض ، فتوارثها الناس على أنها لأبي مدين ، وهي في الأصل لغيره وهذه النصوص موجودة في الديوانين كالآتي :

1)– النص الأول :

قال أبو مدين :

طابت أوقاتي لمحبوب لنا حبه ذخري

نرغب من لا لنا عنه الغنى في صلاح أمري [9]

قال الششتري :

طاب وقتي في حبيب ه لنا ذكره ذخري

فاسألوا من لا لنا عنه غنى في صلاح أمري [9]

2)-النص الثاني :

قال أبو مدين :

اعلم يا خلي أن خصالي رشف المصالي
قد جار حبي واسلب نصالي واقطع وصالي
لازال عشقي على اتصال بلا انفصال (10)

.قال الششتري :

تعلم يا خلي أن خصالي رشف المصالي
قد جرى حبي واسلب نصالي واقطع وصالي
لا زال عشقي على اتصال بلا انفصال (10)

3)- النص الثالث :

قال أبو مدين :

زارني حبيبي طابت أوقاتي وسمح لي الحبيب
وعفا عن جميع زلاّتي على غيظ الرقيب (11)

وقال الششتري

زارني حبي وطابت أوقاتي وسمح لي الحبيب
وعفا عن جميع زلاّتي على غيظ الرقيب (11)

4)- النص الرابع :

قال أبو مدين :

يا عيني لازمي السّهر طول الليالي عشقي في محبوبي اشتهر رقوا لحالي[12]

وقال الششتري:

أعيني لازم السّهر طول الليالي عشقي في محبوبي ا شتهر رقوا لحالي[12]

5)- النص الخامس:

قال أبو مدين :

إن كنت ذا اتصال أبصرت في العلا النور متلالي وقد تمثلا[13]

وقال الششتري:

لو كنت ذا اتصال أبصرت للعلا نورا بلا مثال وإن تمثلا[13]

6)-النص السّادس:

قال أبو مدين :

صحّ عندي الخبر وسرى في سرّي أن عين النظر عين عين الفكر[14]

وقال الششتري :

صحّ عندي الخبر وسرى في سرّي أن عين النظر عين عين الفكر[14]

7)-النص السابع:

وهو البيت الأول مع القفل الذي يليه مجتزأ من نص ورد كاملا في ديوان الششتري ،

قال أبو مدين :

قد لاح لي ما غاب عني وشملي مجموع ولا افتراق [15]

وقال الششتري :

نلت حبي وجل قربي وصرت مجموع

مني عليا دارت كؤوسي من بعد موتي تراني حي

ألاح لي ما غاب عني وشملي مجموع ما يفتراق[15]

8)-النص الثامن:

قال أبو مدين:

انظر في مراك الذي ترى فيها هـ ذاك [16]

وقال الششتري :

انظر في مراك انظر في مراك والذي ترى فيها أنت هـ ذاك [16]

وهي نصوص واضحة الشبه بين كل نصين منها في الموضعين ،علىالرغم ممّا بينها من اختلاف في الترتيب أو الحذف، و كذا في بعض الألفاظ المترادفة .

الهوامـــش:

(1) نفح الطيب للمقرّي .7 : 136–137

(2) الديوان :53

(3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لمحي الدين بن عربي.1: 110، والكتاب التذكاري، محي الدين ابن عربي: 123

(4) البستان لابن مريم : 13–14

(5) نفح الطّيب 7 : 143

(6) ديوان أبي مدين : 61 ، وديوان مجنون ليلى 44–45

(7) نفسه : 66 ، نفسه : 281

(8) ديوان أبي مدين : 66 – 67 والسهروردي المقتول : 77 ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، 7 : 269

(9) ديوان أبي مدين : 73 والجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان : 31 . وديوان الششتري : 324 .

(10) نفسه : 74 ، وديوان الششتري : 349 .

(11) ديوان أبي مدين : 76 ، الجواهر الحسان: 35 ، ديوان الششتري : 89–90

(12) نفسه : 78 ، نفسه : 39 ، نفسه : 293

(13) ديوان أبي مدين :83 ، وديوان الششتري :222

(14) نفسه : 84 ، نفسه : 165

(15) نفسه : 91–92 ، نفسه : 369

(16) نفسه : 92–93 ، نفسه : 203

المصادر و المراجع :

(1) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم (أبي عبد الله محمد) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (د ، ت)

(2) الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان . تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974

(3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيّات و النوادر والأخبار. محي الدين بن عربي، دار النهضة العربية ، بيروت 1988

ديوان أبي الحسن الششتتري تحقيق د/ علي سامي النشار ، منشأة المعارف بالإسكندرية الطبعة الأولى ، مصر 1960 .

(4)

(5) ديوان أبي مدين شعيب ، جمعه العربي بن مصطفى الشوار ، مطبعة الترقي ط1 دمشق 1938

(6) معجم الأدباء لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ، نشره د .س . مرجوليوث المطبعة الهندية ط1 مصر 1925 .

(7) نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب ، لأحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق ، د. إحسان عباس دار صادر ، بيروت 1968 .

(8) الكتاب التذكاري،محي الدين بن عربي ، إشراف و تقديم ، د . إبراهيم مدكور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر ، القاهرة 1969 .

(9) ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، دار مصر للطباعة ، القاهرة 1979 .